فصل في منشإِ نحلتِهم وتكوين طائفتهم

لا يخفى أن الغالب في كثير من النِّحل والمذاهب أن يطرأ عليها التغيير والتبديل بعد ذهاب الداعين إليها؛ إما بالابتداع فيها أو بتغيير النصوص أو بتأويلها، على حسب ما توحيه الآراء وتزينه الأهواء، والشواهد على ذلك كثيرة تكاد لظهورها تُحسُّ وتتقرَّاها الأيدي باللمس، غير أن التغيير يختلف قلَّةً وكثرة تبعًا لأميال المهيمنين على المذهب وأغراضهم واستعداد نفوس متَّبعيهم، وهو عين ما طرأ على مذهب اليزيدية، فإنهم لم يكونوا في مبدإِ أمرهم سوى طائفة من الصوفية، لهم طريق خاص كالحال في سائر طوائف القوم، غير أنهم غلَوا في شيخهم غلوًّا تجاوز الحدَّ وأدَّى إلى قولهم فيه بما لا يوافق شرعًا ولا عقلًا، ثم قام فيهم رؤساء السوء الطالبون للحطام من طريق الرئاسة، فتوسَّعوا في مذهبهم وأدخلوا فيه ما اقتضته مصلحتهم ووافق أهواءهم، وما زالوا ينقصون منه ويزيدون فيه قرنًا بعد قرنٍ حتى خرجوا من الإسلام جملةً.

ولم يكن لهذه الطائفةً وجود ولا ذكر في التاريخ قبل القرن السادس، حتى اشتهر الشيخ عدي بن مسافر بالزهد والورع وكثرة المجاهدة، وتسامع به الناس فقصدوه من الأطراف للاسترشاد، ثم انتقل إلى جبال هكَّار موطن الأكراد فتبعه منهم خلقٌ كثير، اتَّخذ منهم المريدين وأحدث الطريقة العدوية كما مرَّ بك في أخباره، ولم يكن على شيء مريب في طريقته وإلا لما أثنى عليه كل الذين كتبوا عنه، وحسبنا أن الإمام أحمد بن تيمية المشهور بتشدُّده لم يذكره إلَّا بالخير في رسالة له سيأتي شيء منها، وإنما بدأ فيهم الزيغ بعد موته في رئاسة الشيخ حسن عليهم أو قبله بقليل، وقد تقدَّم أنه كان لا يهتم إلا بحفظ ناموسه، مع انطوائه على منكرات أخذها عليه الذهبي وغيره، ولما فشا فيهم الانحراف وشاع عنهم كتب إليهم الإمام ابن تيمية الرسالة العدويَّة التي أشرنا إليها، وهي طويلة بناها على النصح والإرشاد إلى طريق السنة، والحضِّ على التمسك بها،

وتعرَّض فيها لما كانوا عليه في زمنه فحذَّرهم من البدع والغلوِّ في المشايخ، كما غلوا في الشيخ عدي، ومن قوله في هذا الصدد: «وفي زمن الشيخ حسن زادوا أشياء باطلة نظمًا ونثرًا، وغلوْا في الشيخ عدي وفي يزيد بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدي الكبير قدَّس الله روحه، فإنَّ طريقته كانت سليمة، لم يكن فيها من هذه البدع، وابتلوا بروافضَ عادوهم وقتلوا الشيخ حسنًا، وجرت فتن لا يحبها الله ولا رسوله.»

فيتضح من هذا ومما تقدَّمه أصل منشإٍ هذه الطائفة، وأنها كانت تسمَّى في أوَّل الأمر بالعدوية نسبة إلى شيخها، أما تسميتها بعد ذلك باليزيدية فلم نقف على زمنها، والظاهر أنها حدثت في القرون الأخيرة، ولعلَّ موالاة البحث تكشف عنها فيما بعد.